

النهار والليل

النهار هو المصباح الذي يكشف محاسن الناس وعوراتهم على حقيقتها، ما يجعل المحاسن تقف مختالة بجمالها وأناقته وروعته، فيما تحاول العورات الوقوف خلف المحاسن والاختفاء عن الأنظار في الظلال. لكن النهار لا يسمح للعورات بان تختبئ خلف المحاسن، لأن مهمته الأساسية هي تعرية كل شيء، كي ترى كل عين ما تحب وتهوى، ويستمتع كل عاشق بما يروق له. لكن بما أن القيم نسبية، فإن ما قد يبدو جميلاً لعين، قد لا يبدو كذلك لعين أخرى، وإن ما قد يبدو قبيحاً لناظر، قد لا يبدو كذلك لناظر آخر. وفي الواقع، إن من الممكن أن يرى إنسان شيئاً جميلاً في مكان ما في ظل ظروف معينة، ويرى الشيء نفسه غير ذلك في ظل ظروف مختلفة، ما يعني أنه لا يوجد حكم مطلق حتى على الجمال، كما أنه لا يجوز أن يكون هناك حكم مطلق على شيء، لأن تغير الظروف والأذواق والحالة النفسية تتسبب في تغيير الأحكام على كل شيء في الحياة.

وعلى سبيل المثال، قد يرى رجل امرأة في وضوح النهار جميلة، ما يجعله يبدي إعجابه واهتمامه بها، ثم يغير رأيه بعد أيام لأنه يكتشف فيها أشياء مختلفة كانت تختبئ خلف جمال الوجه أو القوام أو اللسان. والعكس أيضاً صحيح، إذ قد يرى رجل في امرأة ما لا يعجبه في أول لقاء، ثم يرى ما هو أعظم من الجمال في لقاء آخر، لأن الرجل المعني لا يتوقف عند ملامح المظهر، وإنما يتجاوز ذلك إلى الجوهر. وهذا يعني ان مصباح النهار، على الرغم من ضوئه الساطع، ليس باستطاعته أن يظهر الحقيقة التي يبحث عنها كل شخص، وإنما يُظهر صورة مجردة من وجهة نظر محايدة، ما يترك لكل شخص حرية الحكم عليها يراها.

في المقابل، يحاول الليل أن يخفي عورات الإنسان والطبيعة، لأنه بمثابة ستارة تلقي بظلالها الكثيفة حول أجزاء الجسد العارية غير الجميلة، وتغطي بعباءتها المعتمة تشوهات الطبيعة التي حاء معظمها نتيجة لسعي الإنسان المحموم لإثراء نفسه على حساب كل شيء حي وجميل على الأرض. لكن الليل حين يخفي عورات الجسد يقوم، من حيث لا يدري،

بكشف أعماق الذات الإنسانية، وتعرية المكبوت من المشاعر والغرائز في قلب الإنسان ووجدانه، وتحريرها مما يكبلها من قيود، وبالتالي يطلق لها العنان كي تعيش الليل على هواها. لكن تحرير الغرائز والسماح لها بالعيش على هواها قد يصادر دور العقل في تقرير طبيعة الفعل وتوقيته وحدته، ما قد يجر الإنسان إلى ارتكاب أخطاء تعود عليه بالضرر أو الندم.

الليل هو السكون الغارق دوماً في بحيرات التأمل، حيث تجري أنهار الأحلام والذكريات من تحتها دون توقف... إنه المحراب الذي تتعثر على عتباته خطوات التائهين من العشاق، وتتساقط على صدره دموع الحالمين من الجهلة، وتسمو في سمائه نظرة المفكرين من الفلاسفة. الليل هو الملجأ الذي تأوي إليه أرواح الباحثين عن شيء يُنسيهم ضجيج النهار وعنفوانه، والسجن المسكون بالرغبة والخوف من السلطة في كل بلاد تسودها سلطة القمع ضد الحب والحقيقة والحرية. الليل هو العنوان الدائم الذي يبحث عنه العشاق، والمرأة التي يقف أمامها الحب عارياً بلا خجل، يكشف عن ذاته بعيداً عن شمس الكبت التي تتجلى في وضوح النهار، وفي منأى عن ثقافة الكذب والرياء والخداع المقيتة.

حين يُخيم الحزن على النهار، وتُسدل الشمس على وجهها المنير خماراً بلون الورد ونكهة النبيذ المعتق منذ الأزل، يولد الليل ويُخيم السكون على الكون، وتُفتح أبواب الحلم السحرية لدخول العشاق والتمتع بنشوة الحب. لكن القمر لا يترك الليل على حاله، ولا يترك العشاق يعيشون غيبوبة العشق على هواهم، إذ ينشر نوره الخجول على الكون مبدداً أجزاء من ظلام الليل ونكهة السكون، يستثير العشاق، يوقظ غرائزهم المكبوتة ومشاعرهم الجياشة، يحرسهم من عيون السلطة، يحررهم من سلطة الكبت، ويتحداهم أن يعيشوا ليالي العشق بنشوة وفرح، مطمئنين إلى أن الكون يبتسم لهم.